مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ: ١٩٧٥/١٠/١٢

حـــرب أكتـــوبر

الـدلالة التاريخيـة والأبعـاد الاجتماعيـة

قرر الرئيس أنور السادات فى خطابه امام مجلس الشعب فى ١٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ « ان التاريخ العسكرى سـوف يتـوقف طويلا بالفحص والدرس امام عملية السادس من اكتوبر » . والحقيقة أن حرب اكتوبر لن تكون موضوعا للبحث فقط امام المحللين العسكريين ، ولكنهـا ــ بالقطع ــ ستتعرض لبحوث متعددة من قبل العلماء الاجتماعيين ، الذين يعرفون قبل غيرهم أن الحرب ليسـت مجرد عملية عسكرية خالصة ، بقـدر ماهى تعبير عن شخصية قومية محددة ، تعكس السمات النفسية والاجتماعيـة لشعب ما ، كما انه يؤثر فى مجراها وفى نوعيتها طبيعة البناء الاجتمـاعى والتنظيم السياسى لمجتمع معين .

لقد استطاع الرئيس السـادات ــ وسط المخاطر المحـدقة ، والشـدائد المحيطة ، والضـغوط السياسـية والعسكرية العنيفة ــ بقراره التاريخى بالاقتحام والعبور ، ان يقضى بضربة واحدة على سلسلة الحتمية التى كان من شأن الخضوع لها الاستسلام لارادة اسرائيل المطلقة. **لقد كان قرارا اخذ مسئوليته السادات وحده ولكنه كان تعبيرا شديد الصدق عن ارادة امـة رفضت الاستسلام بعد أن أيقنت الهزيمـة فى يونيو ١٩٦٧ .**

ومن هنا يمكن القول ، ان حـرب اكتـوبر ، تتجـاوز بكثير انجـازاتها العسكرية، وآثارها السياسية ، سواء على صعيد الصراع العربى الاسرائيلى ، أو على الصـعيد الدولى . **ذلك لان الصراع العربى الاسرائيلى ليس مجرد صراع عسكرى بسيط على الحدود ، بقدر ماهو صراع حضارى ضار ، حاولت فيه اسرائيل بكل طاقاتها اثبات عجـز الشعب العربى ، وتشويه شـخصيته القومية .** لقد استطت حرب اكتوبر المجيدة النظريات العنصرية الغربية ــ الاسرائيلية التى زعمت أن العرب بارعون فى الكلام ، عاجزون عن الفعل . غير انه اهم من ذلك كله يروز مايمكن ان نطلق عليه الدلالة التـاريخية لحـرب اكتوبر . **ونعنى بذلك على وجه التحديد، ان حرب اكتوبر اثبتت قدرة الشعب العربى على تحدى النموذج الصهيونى الغربى الجذور الذى حاول خلال عشرات السنين ان يرسخ فى الاذهان تفوقه الحضارى ، وقوته العسكرية الخارقة .** لقد كانت هذه اول مرة فى تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى الحافل بالاخفاقات العربية ، يتم فيها التصـدى بنجـاح للمشروع الصهيونى فى المجال العسكرى الذى احتكر التفوق فيه امدا طويلا من الزمان .

الدلالة التاريخية لحرب اكتوبر

لا يمكن تقدير الدلالة التاريخية لحرب اكتوبر بغير وضعها فى السياق التاريخى لتطور المواجهـة الصهيونية ــ العربية من جانب ، ولتصـاعد الصراع بيـن الاستعمار الغربى والعالم العربى من جانب آخر . واذا كان المشروع الصهيونى قد دعمته القوى الاستعمارية الغربيـة منذ البداية ، الا أنه استطاع بالرغم من ذلك ، وعبر كل مراحله ، أن يحتفظ لنفسه بقدر من حرية الحركة النسبية ، حتى يستطيع تحقيق أهدافه النوعيـة الخاصة حتى لو تناقضـت فى بعض المراحل التاريخية مع اهداف الاستعمار

الغربى . **وتظهر دلالة اكتوبر فى المواجهة العربية الاسرائيلية لو وضعناها فى سياق تصنيف مراحل تاريخ الغزوة الصهيونية فى العالم العربى** . فوفقا لما يراه بعض الباحثين العرب تنقسم هذه المراحل الى أربع . المرحلة الاولى **هى مرحلة التسلل** وتمتد بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٧ . فقد جاءت الى فلسطين موجة الهجرة الصهيونية الاولى عام ١٨٨٢ ، ولنلاحظ أنه أيضا العام الذى بدأ فيه الاحتلال البريطانى لمصر . فى هذه المرحلة أخذ التهجير اليهودى صورة التسلل لان الدولة العثمانية لم تسمح به رسميا ، واستمرت المرحلة الى ان احتلت بريطانيا فلسطين ودخل اللنبى القدس أواخر عام ١٩١٧ .

والمرحلة الثانية هى **مرحلة التغلغل** وتمتد بين عامى ١٩١٧ و ١٩٤٨ . وابرز مافى هذه المرحلة هو صدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، واحتلال بريطانيا لفلسطين فى ديسمبر ١٩١٧ . وعبر ثلاثين عاما استغرقتها هذه المرحلة نجح التحالف الصهيونى الاستعمارى فى تهجير مئات الالوف من يهود اوربا الى فلسطين . ومع بداية هذه المرحلة اكمل الاستعمار الاوربى سيطرته على العالم العربى ، وبدأ النضال العربى يجابه قوى الاحتلال فى أجزاء عديدة من الوطن العربى . وتأتى المرحلة الثالثة ونعنى **مرحلة الغزو** بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ . وهذه هى المرحلة التى تجسد فيها المشروع الصهيونى حقيقة كاملة ، بدأت باعلان قيام الدولة بعد انسحاب الانتداب البريطانى من فلسطين عام ١٩٤٨ ، وبعد تواطئه لتسليم كثير من الاراضى الفلسطينية لليهود . ونجح المشروع الصهيونى باعتباره استعمارا استيطانيا فى طرد مليون فلسطينى من أرضهم واحلال مستوطنين يهود محلهم بلغ عددهم حتى حرب ١٩٦٧ ، مليونى مهاجر . وخلال هذه الفترة ساهمت اسرائيل عام ١٩٥٦ فى العدوان الثلاثى، وكأنها كانت تجرب خططها فى العدوان والتوسع ، فاحتلت قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ولكنها اضطرت للانسحاب منها . وبالعدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ تبدأ **مرحلة التوسع** التى انتهت بحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ . فى هذه المرحلة بالذات كشف المشروع الصهيونى عن نفسه القناع ، وبدلا من تركيز الدعاية الاسرائيلية فى المرحلة السابقة على اسرائيل الدولة الصغيرة التى تخشى من ان يبتلعها العرب ، اذا بها فى هذه المرحلة تمارس وتنفذ مخطط انشاء دولة « **اسرائيل الكبرى** » ، وقد ساعدها على ذلك احتلالها لمساحات شاسعة من مصر وسوريا . وعملت اسرائيل على تهجير مزيد من يهود العالم الى الاراضى العربية المحتلة ، واقامة المستوطنات لهم ، واستعدت اسرائيل لضم الاراضى العربية المحتلة لها نهائيا متعللة بان الحدود التى رسمتها هى « الحدود التاريخية » لاسرائيل . وكان مقدرا أن يتم تنفيذ كل هذه المخططات التوسعية حتى فاجأت حرب أكتوبر اسرائيل والعالم.

وهكذا يمكن القول ان الدلالة التاريخية الخطيرة لحرب اكتوبر لا تكمن فحسب فى أنها اثبتت القدرة العصرية للشعب العربى على التعامل مع التكنولوجيا الحديثة ، ولا فى كونها تعبر عن الارادة القومية التى قبلت وخاطرت بتحدى النموذج الصهيونى الغربى فى القوة العسكرية ، ولكن فى انها احدثت قطعا نهائيا فى مسار خطط التوسع الصهيونى فى العالم العربى .

ومن هنا يصدق تكييف بعض الباحثين لحرب اكتوبر بأنها — بالمعنى التاريخى للكلمة — **تمثل بداية انحسار الغزوة الصهيونية للعالم العربى . ولا يعنى ذلك أن الخطر الاسرائيلى سيتضاءل ، على العكس بل انه سيتعاظم فى المراحل القادمة .**

الابعاد الاجتماعية لحرب اكتوبر

ماهى الابعاد الاجتماعية لحرب اكتوبر ؟ وكيف يمكن استخلاص الدروس المستفادة منها ؟ **ان هذه الحرب ، لاتمثل فقط — بالنسبة للشعب المصرى — تجمع الارادة القومية واندفاعها نحو هدف محدد هو مجابهة الاحتلال الاسرائيلى ودفع العدوان الصهيونى ، ولكنها قبل ذلك تمثل نجاحا خارقا فى التنظيم العسكرى :يعكس نضجا لاشك فيه فى التنظيم الاجتماعى .** فبالرغم من كل ما قيل عن تخلف المجتمع العربى — وبعض ماقيل حقيقة اذا ابعدت عنه المبالغات — فقد استطاع المجتمع المصرى فى مرحلة زمنية **لا** تتجاوز السنوات الست ، ان يستوعب صدمة الهزيمة الساحقة فى يونيو ١٩٦٧ ، وان يعيد بتركيز شديد تجديد قواته المسلحة ، وان يهب نفسه للاعداد للحرب ، متبعا فى ذلك أحدث الوسائل والاساليب ، وحرب اكتوبر التى أذهلت العالم بنتائجها العسكرية والسياسية والاقتصادية ، تستحق منا وقفة متأنية لنتأمل — من وجهة النظر الاجتماعية — أبعادها الحقيقية وما تشير اليه .

لقد كشفت انجازات الحرب عن مجموعة متماسكة من القيم والمؤشرات والمبادىء من أبرزها :

- أهمية التخطيط العلمى المتقن الذى يضع فى اعتباره كل الاحتمالات .
- إثر الجدية فى السلوك — التى تمثلت فى التدريب الشاق المتواصل للقوات المسلحة — فى تحقيق معدلات عالية فى الانجاز .
- القدرة الخارقة للمواطن المصرى على التكيف مع أعقد المبتكرات التكنولوجية .
- الجسارة فى مواجهة المجهول والقدرة على تحمل المخاطر .
- اثر الجماعية فى التخطيط والتنفيذ ، وسيادة روح الفريق ، التى كانت وراء كل الانتصارات العسكرية .
- رشد السلوك الجماعى للجماهير ، الذى تمثل فى انضباطها وانتظامها ، ووقوفها وراء قواتها المسلحة .

لو تأملنا بعمق القيم والمؤشرات والظواهر السابقة لاستطعنا القول ان بعضها قد أسقط الى الابد الدعاوى العنصرية عن عجز الانسان العربى وتخلفه ، وبعضها الاخر قد كشف زيف ماوصفت به الشخصية القومية العربية من فردية ، وهروب من الواقع ، وعجز عن مواجهة المخاطر ، وممارسة الكلام بدلا من ممارسة الفعل . **غير انه اخطر من ذلك كله نستطيع ان نكتشف ان « تجربة أكتوبر » تبدو غير متناسقة تماما مع صور الخلل الاجتماعى فى المجتمع المصرى . فمن السهولة بمكان ، ان نلاحظ سيادة روح السلبية والاستهتار فى قطاعات عديدة ، ومن الواضح ايضا عجز عديد من المؤسسات الصناعية والتجارية والادارية عن تنظيم اعمالها بطريقة عصرية رشيدة ، مما يترتب عليه ضياع للمال العام ، وانخفاض فى الانتاجية ، وتحميل فئات الشعب المختلفة متاعب شتى للحصول على ما تحتاجه من سلع او خدمات . باختصار شديد ، فى مقابل المصرية فى تجربة اكتوبر نجد التخلف ، وفى مقابل الانضباط نجد التسيب ، وفى مقابل ارتفاع معدلات الانجاز ، نجد الفشل فى التخطيط والتنفيذ معا .**

ترى ما الذى يفسر هذا التناقض من وجهة النظر الاجتماعية ؟ هل يرد نجاح تجربة أكتوبر الى السمات النوعية الخاصة للتنظيم العسكرى بما يفرضه من انضباط حديدى وتحدد صور الحوافز والروادع ؟ هل يرجع الانجاز الباهر فى أكتوبر ، الى ان الامة المصرية ، اعتبرت التصدى للاحتلال الاسرائيلى هو المشروع القومى الاول الذى ينبغى ان تعطى له كل الطاقات ، وتبذل فى سبيله كل الجهود ؟ هل ترجع الفدائية النادرة

فى سلوك المقاتل المصرى ، الى التراث النضالى المصرى العريق ، الذى يظل كامنا الى ان ينكشف عنه الستار ، اذا ماتوافرت له الظروف التنظيمية المهيئة ؟

كل هذه تساؤلات ، لا أزعم اننى أمتلك اجوبتها . غير اننى أدعو الى الدراسة العلمية الاجتماعية الشاملة « لتجربة اكتوبر » .

وهذه الدراسة يمكن ان تكون مدخلا ضروريا لنا ، ونحن على اعتاب المرحلة الخامسة للمجابهة العربية الاسرائيلية ، التى ليس شرطا ان تتقابل فيها الامة العربية مع التجمع الاسرائيلى فى ساحة القتال ، بل لقد نجد انفسنا فى ساحة التنمية الاجتماعية بالمعنى الضيق ، أو فى ميدان النهضة الحضارية بالمعنى الواسع . وحينئذ لن يجدينا مجرد التغنى باصالتنا الماضيه، بل أن المحك الحقيقى سيكون قدرتنا على تكرار « نموذج اكتوبر » فى الميدان الاجتماعى بكل ما يتضمنه من عصرية فى التخطيط والتنفيذ ، ومن ثورية فى مجال السلوك السياسى والاجتماعى . □

السيد يسين